مركز المسبار للدراسات والبحوث
Al Mesbar Studies & Research Centre

الإسلام والمسلمون في الصين

الكتاب 105 سبتمبر (أيلول) 2015

كتاب شهري يصدر عن مركز المسبار للدراسات والبحوث

نشاط الاستعراب في الصين

تشونغ جيكون (Zhong Jikun)(*)

من المعروف أن الحضارة العربية الإسلامية عريقة، عميقة الينبوع طويلة المجرى، مثلها مثل الحضارة الصينية، وكان الإسلام قد دخل إلى الصين منذ منتصف القرن السابع الميلادي، وقد بلغ عدد المسلمين في الصين حوالي (30) مليوناً، ينتسبون إلى (10) قوميات أقلّية من الـ(56) قومية التي تتكون منها الأمّة الصينية.

(*) مستعرب صيني، أستاذ اللغة العربية وآدابها في كلية اللغات الأجنبية (جامعة بكين).

ولكن بشتّى الأسباب التاريخية، خصوصاً بحكم هيمنة المركزية الغربية- الأوروبية، كان الاستعراب -أي الدراسات والبحوث للحضارة العربية الإسلامية أو شؤون العالم العربي- لم يأخذ في الصين خلال فترات طويلة نصيبه المستحقّ، أو مثل نصيب الاستغراب -أي الدراسات والبحوث للحضارة الغربية أو شؤون الدول الغربية- حتى ولو في الاستشراق لم تأخذ نصيبها مثل نصيب الدراسات والبحوث للحضارتين أو الثقافتين الهندية واليابانية.

قد يمكن للاستعراب في الصين بمغزاه الأوسع أن تسترجع بدايته إلى أواخر عهد أسرة مينغ الملكية (1368-1644)؛ وأوائل عهد أسرة تشينغ الملكية (1644-1911)، أي منذ القرن السادس عشر الميلادي، إذ ظهر في الصين التعليم المسجدي، أي تعليم المسلمين في الكتاتيب الملحقة بالمساجد، بريادة الحاجّ الشيخ: خو دنغ تشو محمد عبدالله إلياس (1522-1592)، لتدريس اللغة العربية، والقرآن الكريم والحديث النبوي وتفسيرهما، وعلم التوحيد وعلم الفقه والمبادئ الأخلاقية وغيرها لإعداد الأئمّة، وبعد ذلك نبغ بعض العلماء المسلمين المشاهير، أمثال: وانغ داي يوي (نحو 1570-1669)، وتشانغ تشونغ (نحو 1584-1670)، وما تشو يوسف (1640-1711)، وليو تشي (نحو 1662-1730)، وما ده شين روح الدين (1794-1874)، ووانغ جينغ زاي يعقوب (1880-1949). ولكن في نظري أن اعتبارهم مستعربين ليس بقدر اعتبارهم علماء مسلمين للدعوة للإسلام في الصين، لا للاستعراب.

فإذا تحدثنا عن الاستعراب في الصين، فإنني أودّ أن أضع في هذه العجالة لمحة عن الدراسات والبحوث للأدب العربي في الصين، بصفتي دارساً ثم مدرّساً مختصاً باللغة العربية وآدابها منذ سنة 1956.

أعمال الترجمات

إذا استرجعنا ما في التاريخ وجدنا أن السلف لم يتركوا في هذه الناحية لنا -نحن الخلف- إلا تراثاً قليلاً، فبالرغم من أن أعمال ترجمة النصوص العربية بالصينية كانت قد بدأت في القرن الـ(18)، لكننا لم نجد حينذاك إلاّ بعض العلماء

المسلمين الصينيين قد ترجموا، بفضل الدوافع الدينية، معاني بعض سور القرآن الكريم أولاً، ثم معانيه كاملاً، وقصيدة «البردة» لشرف الدين البوصيري.

فقبل تأسيس جمهورية الصين الشعبية عام 1949، لم يعرف معظم القرّاء الصينيين عن الأدب العربي القديم إلا بعض قصص «ألف ليلة وليلة»، التي نقلها بعض المثقفين إلى الصينية بواسطة الإنجليزية أو اليابانية ابتداءً من سنة 1900، ولم نجد –حينئذ– في الصين من كان يترجم هذه القصص المشهورة في العالم عن اللغة العربية مباشرة إلاّ الأستاذ نور محمد ناسيون (1911–1989) إذ ترجم معظم حكايات «ألف ليلة وليلة» عن اللغة العربية، ونشرها في خمسة مجلدات عام 1941، أما بشأن الأدب العربي الحديث، فأوّل ما عرفه أبناء الصين من الأعمال العربية هي خمس أقاصيص رمزية لجبران خليل جبران، ترجمها الأديب الصيني الكبير ماو دون (1896–1981) سنة 1923، و«النبيّ» للمؤلف نفسه، والذي ترجمته الأديبة الشهيرة بينغ شين (1900–1999) سنة 1931 بواسطة الترجمة الإنجليزية.

ربما يجدر بنا أن نعتبر الاستعراب في الصين بمعناه الحقيقي ابتدأ منذ منتصف أربعينيات القرن الماضي، إذ أدخل تدريس اللغة العربية من الجامع إلى الجامعة حينذاك، فقد أنشأ الأستاذ محمد مكين (1906–1978) سنة 1946 قسم اللغة العربية في كلية اللغات الشرقية بجامعة بكين، فهو وزملاؤه أمثال الأساتذة: رضوان ليو لين روي (1917–1995)، وعبدالرحمن ناتشونغ (1909–2008)، وإسماعيل ما جين بونغ (1913–2001)، وغيرهم كانوا من خريجي الجامعة الأزهرية في ثلاثينيات القرن الماضي، وكانوا يعتبرون من رواد الاستعراب أو الجيل الأول من المستعربين في الصين، فبفضلهم أنشئ حتى سبعينيات القرن الماضي قسم اللغة العربية في (7) أو (8) مدارس عالية. لكن خلال هذه الفترة الطويلة كانت تدرّس فيها اللغة العربية فقط، ولم يكن تعليم مواد الأدب العربي تقريباً.

ظهر في الصين، أواخر خمسينيات القرن الماضي وأوائل ستينياته، لأول مرة مدّ عالٍ لتعريف الأدب العربي لمسايرة تطور الوضع السياسي في الشرق الأوسط

حينئذ، فقد تُرجِم ونُشر عدد كبير من الأعمال الأدبية العربية نثراً وشعراً، ولكنّ معظمها لم تنقل إلى اللغة الصينية مباشرة، بل ترجمت بواسطة ترجماتها الروسية، أما ما ترجم من العربية مباشرة، فلم يكن إلا قليلاً نادراً أمثال: «كليلة ودمنة»، و«مختار قصص ألف ليلة وليلة».

وجاء بعد ذلك ما يسمى بـ«الثورة الثقافية الكبرى» التي دامت عشر سنوات من سنة 1966 حتى سنة 1976، ولكن هذه الثورة في الحقيقة ليست ثورة للثقافة، بل هي كانت ثورة على الثقافة، فمن البديهي أن كلّ أعمال الاستعراب قد توقّفت وتجمّدت تماماً.

إن حركة الإصلاح والانفتاح التي بدأت أوائل ثمانينيات القرن الماضي جاءت بنهضة جديدة لأعمال الاستعراب، ومن ضمنها أعمال الترجمة والبحوث للأدب العربي في الصين.

ففي تلك الجامعات والمعاهد العالية التي تدرِّس فيها اللغة العربية، أنشئت على التوالي مادة «تاريخ الأدب العربي» وشتّى الموادّ المتعلّقة بالحضارة العربية الإسلامية، لغرض توسيع آفاق المعارف لدى الطلاب، وتنمية رغبتهم في تذوُّق الأدب العربي، ورفع كفاءتهم على العموم، كما وضعت بعض الجامعات والمعاهد العالية على عاتقها مهمّة إعداد طلاب الدراسات العليا للأدب العربي والثقافة العربية، فخلال أكثر من (30) سنة منذ تطبيق سياسة الإصلاح والانفتاح، حصل عشرات الطلاب على الماجستير أو الدكتوراه في الأدب العربي أو الثقافة العربية، في جامعة بكين، وجامعة الدراسات الأجنبية ببكين، وجامعة الدراسات الأجنبية بشانغهاي، وغيرها من المدارس العالية، وكذلك تأسس بعض المنظّمات والمعاهد أو المراكز للاستعراب. مثلاً، نجد في جامعة بكين معهد الحضارة العربية الإسلامية، وفي جامعة الدراسات الأجنبية ببكين مركز الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان لدراسة اللغة العربية والدراسات الإسلامية، وفي جامعة الدراسات الأجنبية بشانغهاي معهد دراسات الشرق الأوسط، كما تأسس مجمع تدريس اللغة العربية في الصين، ومجمع

دراسات الشرق الأوسط.

والجدير بالذكر أنه قد تكوّن منذ أوائل ثمانينيات القرن العشرين فصاعداً موكبٌ للاستعراب وخصوصاً لبحوث الأدب العربي، وأخذ يتطور ويتعاظم على مرّ الأيام، ويلعب دوره ويؤدّي رسالته في بلادنا. على كل حال، فحسب الإحصاءات الأولية بلغت الأعمال الأدبية العربية التي تمّت ترجمتها إلى اللغة الصينية أكثر من (200) نوع، ونُشر معظمُها بعد تطبيق سياسة الإصلاح والانفتاح في ثمانينيات القرن العشرين.

بحوث الأدب العربي

أقيمت في أكتوبر (تشرين الأول) عام 1983 الدورة الأولى لمنتدى الأدب العربي تحت عنوان: «الأدب العربي- ماضيه وحاضره»، واتّفق المشاركون فيها على تحضير إنشاء جمعية بحوث الأدب العربي بالصين. أما في الدورة الثانية لمنتدى الأدب العربي التي أقيمت في أغسطس (آب) عام 1987، فقد تناقش المشاركون فيها حول محورين: «ألف ليلة وليلة»، و«نجيب محفوظ وأعماله»، كما أعلن فيها – رسمياً- إنشاء جمعية بحوث الأدب العربي بالصين. وقد قامت الجمعية منذ تأسّسها بسلسلة من النشاطات والفعاليات المتنوعة، كالمنتديات والندوات والمحاضرات الأكاديمية والحفلات التذكارية وأمسيات الشعر وغيرها، نذكر منها مثلاً: «ندوة حول ترجمة الأدب العربي»، و«محاضرات عن الأديب المصري الكبير نجيب محفوظ بمناسبة فوزه بجائزة نوبل الأدبية»، و«الندوة الأدبية للذكرى المئوية لميلاد الأديب اللبناني الكبير ميخائيل نعيمة والذكرى السنوية الأولى لوفاته»، و«ندوة عن منجزات الناشئين لبحوث الأدب العربي في الصين»، و«الندوة الأدبية للذكرى المئوية لميلاد المفكرين العربيين الكبيرين: طه حسين، وعباس محمود العقاد»، و«ندوة حول الأدب العربي والعالم.. التقليد والتجديد»، و«ندوة حول تدريس الأدب العربي في المدارس العالية بالصين»، و«ندوة الأدب العربي والثقافة الإسلامية»، و«ندوة عن المرأة في الأدب العربي وأدب المرأة العربي»، و«الأدب العربي في ملتقى القرنين»، و«الزمان

والمكان في الأدب العربي»، و«كلاسيكيات الأدب العربي في القرن العشرين»، و«الأدب العربي في العقد الأول من القرن الحاضر»... إلخ.

وبفضل جهودنا أصبح كلّ ما يُعنوَن بالآداب العالمية أو الآداب الأجنبية وخصوصاً الآداب الشرقية أو الآداب الأفروآسيوية، من كتب التاريخ أو المؤلفات المبوّبة أو المَعاجم، لم تعد تخلو هذه المترجمات من تعريف الأدب العربي أو تتّخذه كزينة لها فقط كما كان، فنجد المحتويات عن الأدب العربي قد شغلت حجماً مناسباً فيها أمثال: «جزء الآداب الأجنبية من الموسوعة الصينية الكبرى»، و«معجم الآداب الشرقية»، و«تاريخ الآداب الأجنبية»، و«تاريخ الآداب الشرقية»، و«تاريخ الآداب الشرقية الحديثة»... إلخ.

قد ألّفتُ أنا شخصياً «تاريخ الأدب العربي الحديث»، و«تاريخ الأدب العربي الكامل» في مجلّدين، ففي المجلّد الأول منهما عرّفنا الأدب العربي القديم في العصور المختلفة (العصر الجاهلي والعصر الإسلامي والعصر العباسي والعصور المتأخرة والأدب الأندلسي)، أما المجلد الثاني فيعرّف أوّلاً تاريخ الأدب العربي الحديث تعريفاً عامّاً، ثم يعرّف تعريفاً خاصّاً وعلى حدة الأدب في (18) قُطراً عربياً. ونعرّف في هذه الكتب مع النقد والتعليق بإيجاز أو تفصيل، أعلامَ الأدب العربي قديماً وحديثاً وروائعهم شعراً ونثراً، واتجاهاتهم وتياراتهم الأدبية والفنية.

إلى جانب ذلك، ألّف ونشر زملائي، خلال هذه السنوات الأخيرة، أطروحات تخصصية عدة خاصة بالأدب العربي، مثلاً: «موجة صدمية شرقية – التعليق على جبران خليل جبران» للأستاذ إي هونغ، و«جبران خليل جبران في الصين» للأستاذة قان لي جيوان، و«الدراسات عن جبران خليل جبران خلال الحوار الثقافي» للأستاذة ما تشنغ، و«الأدب العربي في التحولات الثقافية» للأستاذة تشانغ هونغ يي، و«الميثولوجيا والواقع– التعليق على ألف ليلة وليلة» للأستاذ تشي بو هاو شريف، و«الأدب العربي الحديث والصوفية» للأستاذة لي تشن درّيّة، و«هي تغنّي بالحبّ– دراسة في الشاعرة الكويتية سعاد الصباح» للأستاذ لين فونغ مينغ عامر،

و«أحاديث عن الأدبيات العربية في الصين» للأستاذ قه تي إينغ، و«نزهة في جنّة الأدب العربي» للأستاذ شوي تشينغ قو بسام، ومن مجموعات النقد الأدبية: «الحبّ اللانهائي– دراسات وبحوث عن الأديب المصري نجيب محفوظ»، و«التعليقات على الأدب العربي»، و«الدراسات المقارنة بين الأدبين الصيني والعربي»، و«الأدب العربي الشعبي»... إلخ، فيعتبر مؤلّفوها من المستعربين الناشئين في الصين، فأوضح صدور هذه الأطروحات أن دراسات الأدب العربي في بلادنا تتطور بشكل أوسع وأعمق.

كذلك أصبح صوتُ الدارسين والباحثين للأدب العربي مسموعاً دائماً، في بعض المؤتمرات والمنتديات الأكاديمية بشأن الآداب الأجنبية والشرقية، والأدب المقارن والترجمة الأدبية، كما تُنشر دائماً مقالات وبحوث عن الأدب العربي في بعض المجلات أو الدوريات المختصة بالبحوث الأدبية، وتركّز خصوصاً على دراسة «ألف ليلة وليلة» والكاتبين نجيب محفوظ وجبران خليل جبران.

وفضلاً عن ذلك، كان إخواننا الباحثون في الأدب العربي قد شاركوا بالدعوة مرات عدة، في ما أقامت الدول العربية من المهرجانات والمنتديات عن الأدب والثقافة والترجمة وغيرها.

ومن البديهي أن من واجبنا المهمّ أن نعرّف القراء الصينيين بالأدب العربي؛ فقد ترجمنا عدداً ليس قليلاً من الأدبيات العربية قديماً وحديثاً، شعراً ونثراً، فنذكر منها على سبيل المثال: «مختار الشعر العربي القديم» الذي يشتمل على أكثر من (400) قصيدة أو قطعة شعرية لأكثر من (130) شاعراً، و«من بدائع الأدب العربي القديم»، و«ألف ليلة وليلة» بخمسة أنواع من ترجمتها الكاملة وعدد لا يحصى من مختارات قصصها، و«سيرة عنترة بن شداد» الكاملة، و«المجموعة الكاملة من مؤلفات جبران خليل جبران» بأربعة أنواع، وأكثر من عشرين رواية أو مجموعة قصص قصيرة من أعمال نجيب محفوظ، من بينها ثلاثية «بين القصرين» بأربعة أنواع، و«أولاد حارتنا» بثلاثة أنواع، كما ترجمنا «مختار الشعر العربي الحديث»، وديوان «حرف ولون» للشاعر السعودي سمو الأمير خالد الفيصل، وديواني الشاعر العربي الكبير أدونيس

«عزلتي حديقة» و«تجاعيد الوقت»، وترجمنا من أعمال ميخائيل نُعَيمة: «سبعون» و«لقاء» و«جبران خليل جبران» و«مختار قصص ميخائيل نعيمة القصيرة»، وترجمنا رواية «الرغيف» ليوسف توفيق العواد، و«حكاية زهرة» لحنان الشيخ، وترجمنا رائعة الأديب السوداني الكبير الطيب صالح «موسم الهجرة إلى الشمال»، كما ترجمنا كثيراً من روائع أعلام الأدب العربي، أمثال: توفيق الحكيم، وطه حسين، ويوسف إدريس، ويوسف السباعي، وإحسان عبدالقدوس، وجمال الغيطاني، وحنا مينه، وغسان الكنفاني، وفؤاد التكرلي، وإبراهيم الكوني، وإبراهيم أحمد الفقيه... إلخ.

ما دمنا نتحدث عن الاستعراب في الصين، فمن الطبيعي أن ذلك لا ينبغي أن ينحصر في ناحية الأدب ويقتصر عليها، إلاّ أنني لم أستوعب المعلومات الكافية الوافية، فلا يحقّ لي أن أهرف بما لا أعرف.

آثار المستعربين

وعلى الرغم من ذلك يمكنني الحديث عن النزير من الغزير في ذلك. مثلاً: قد ترك كل روّاد الاستعراب أو الجيل الأول من المستعربين في الصين، المذكورين سابقاً، قبل رحيلهم آثارهم الاستعرابية القيّمة، فمثلاً: ترجم الأستاذ محمد مكين معاني القرآن الكريم ترجمة مثالية، وترجم «تاريخ العرب المطول» لفيليب حتّي، والأستاذ رضوان ليولين روي، وهو كان الرئيس الأول لجمعية بحوث الأدب العربي في الصين، قد ترجم «الأرض» للأديب المصري عبدالرحمن الشرقاوي، وعرّب رواية الأديب الصيني الكبير ماو دون «منتصف الليل»، والأستاذ عبدالرحمن نا تشونغ قد ترجم مع تلاميذه سلسلة تاريخ الحضارة العربية الإسلامية للعالم المصري أحمد أمين، كما ألّف هو نفسه «تاريخ العرب الكامل» في مجلّدين، والأستاذ إسماعيل ما جين بونغ قد ترجم «رحلة ابن بطوطة» المشهورة، كما أعدّ وترجم «التفسيرات للقرآن الكريم».

وفضلاً عن ذلك، نجد من أعمال الجيل الجديد من المستعربين الصينيين: «تاريخ دين الإسلام» لجين يي جيو، و«تاريخ الفلسفة العربية» للي تشن تشونغ علي،

و«الفلسفة العربية المعاصرة» و«دراسات عن الفلسفة العربية في عصرنا الحاضر» لتساي ده قوي صدقي، و«تاريخ العلاقات الصينية العربية» لقوه ينغ ده، و«تاريخ الأفلام العربية» للو سياو شيو محسن، و«دراسات الثقافة العربية والإسلامية– منظور علم الغة الثقافي» لقوه شاو هوا، و«دراسات في معاني اللغة العربية» لفو تشي مينغ أمين، و«دراسة جديدة للبلاغة العربية» لشي تشي رونغ مجيد، و«علم الأسلوب اللغوي العربي» لوانغ يو يونغ، و«النهضة الإسلامية المعاصرة للشيعيين» لوو بينغ بينغ عثمان، و«اللغة العربية والثقافة العربية» لتشو ليه، و«أنظر في الشرق الأقصى إلى الشرق الأوسط» لتشو وي ليه عبدالجبار، و«سيرة ومستقبل التواصل بين الحضارتين الإسلامية والصينية» لما مينغ لانغ، و«الإسلام والنقاط الساخنة الدولية»، و«الإسلام والسياسات العالية» لجين يي جيوو... إلخ.

وقد ألّفنا وأعددنا أنواعاً من المعاجم أو القواميس عن اللغة العربية والحضارة أو الثقافة العربية الإسلامية، أمثال: «معجم العربية الصينية»، و«معجم الصينية – العربية»، و«معجم المصطلحات التكنولوجية– صيني– عربي– إنجليزي»، و«قاموس المصطلحات الخاصة بإدارة الأعمال والاقتصاد والتجارة– عربي– صيني»، و«معجم المصطلحات العلمية والفنية، العربية – الصينية»، و«معجم الأمثال الصينية – العربية»، و«معجم الأمثال والحكم العربية – الصينية»، و«معجم العربية – الإنجليزية – الصينية المصورة»، و« قاموس الدين الإسلامي»، و«الموسوعة المبسطة للدين الإسلامي»... إلخ.

وأصدرنا كذلك بعض الدوريات والمجلات الخاصة بالاستعراب أمثال: «دراسات العالم العربي» التي كانت تسمى «العالم العربي»، صدرت في ديسمبر (كانون الأول) عام 1978 ورأس تحريرها الأستاذ تشو وي ليه عبدالجبار، رئيس معهد دراسات الشرق الأوسط بجامعة الدراسات الأجنبية بشانغهاي. وولدت منذ عام 1980 مجلة «آسيا الغربية وأفريقيا» ناطقة بلسان معهد شؤون آسيا الغربية وأفريقيا بأكاديمية العلوم الاجتماعية الصينية، وكذلك نشرت في جامعة بكين دورية «منتدى الهلال والشرق» والنشرة الإخبارية للأدب العربي و... إلخ.

في الحقيقة، إنني أرى أن الاستعراب في الصين موضوع كبير قد يحتاج إلى بعض المؤلفات التي تتناول الجوانب المختلفة بتحليل وتعليل بإسهاب وإطناب، وأخشى أنه أوسع وأكبر من أن أتحمل هذه المهمّة تجاه الإخوان القرّاء العرب في هذه العجالة، ولكني أودّ على كل حال –متجرئاً– أن أقدّم إليهم لمحة عن ذلك، أي عن الاستعراب في الصين.

ومن المسلّم به أننا –بصفتنا مستعربين في الصين– لعبنا –إلى حدّ ما– دورنا وأسهمنا في إثراء الصلات الثقافية بين الشعبين الصيني والعربي، لكن علينا أن نعترف –أيضاً– بأن ما حققنا من النجاحات لم تكن كافية وافية كمًا وكيفًا، ولم تبلغ المستوى المنشودَ الأمثلَ على الإطلاق، ذلك لأن الثقافة العربية الإسلامية بما فيها الأدب العربي قديماً وحديثاً، غزيرة وفيرة، ثريّة بهيّة، كأنها كنز وبحر، وليس ما أنجزنا إلا مثل قطرة من البحر.

شأننا نحن المستعربين الصينيين كما قال المثل: إن العين بصيرة واليد قصيرة، فتواجهنا صعوبات كثيرة في طريق سيرنا، ولكن صدق المثلُ الآخر أيضاً بقوله: إن هِمّة الرجال تذلل الجبال، فلا نخاف من أي صعوبة، بل سنثابر على بذل أقصى جهودنا في أداء واجبنا ولعب دورنا في إثراء الصلات الثقافية بين شعبينا الصيني والعربي.

ونحن على ثقة تامة بأن الأمس واليوم الجميلين سيؤديان إلى غدٍ أجمل وأفضل.